﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: 67]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توحيد الله في التّصرُّف في الخَلْق

لمّا ذكر تعالى وصفَ المشركين في اعتقادهم آلهتهم وأنّها تضرّ وتنفع، وأتْبعَ ذلك بقصة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسته إلى ذرّيّته وتسويله لهم، ذكر ما يدلّ من أفعاله على وحدانيَّته، وأنَّه هو النافع الضّارُّ المُتصرِّف في خَلْقِه بما يشاء، فذكرَ إحسانه إليهم بَحْرًا وبَرًّا، وأنّه تعالى مُتمكِّنٌ بقدرته ممّا يريده[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّكُمُ﴾: أصل (مسس) يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهو مَجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، وأكثرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ[3]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[4]، وحاجةٌ ماسَّة؛ أَيْ: مُهِمَّة[5]، ومعنى ﴿مَسَّكُمُ﴾ في الآية الكريمة: أصابكم.

2) ﴿ٱلضُّرُّ﴾: أصل (ضرر) النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في مالِهِ[6]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأَذَى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا[7]، وكلّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.
(4) الخليل، العين: (مسس).
(5) الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(6) الخليل، العين، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (ض)، وابن سِيده، المخصص: 4/ 103.
(7) المعجم الوسيط: 1/ 537.

في بدنٍ فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنّفع فهو ضَرٌّ[1]، والضُّرُّ المقصود في الآية: الإشْرافُ على الغَرَق[2].

3) ﴿ٱلْبَحْرِ﴾: الأَصْلُ (بحر) يدلُّ على الاتّساعِ والانْبِساطِ، والبَحْرُ: الماءُ الكَثير، ملْحًا كان أو عَذْبًا، وخِلافُه: البَرُّ، وبَحَرْتَ كذا: وسَّعْتَه، ومنه سُمّيَ البَحْرُ؛ لاتّساعِه وانبِساطِه، وبِه سَمَّوا كلَّ مُتوسِّعٍ في شيْءٍ بَحْرًا كالعالِم[3]، ويُطلَق البَحْرُ على الشَّقِّ، وبَحَرْتُ البَعيرَ: شَقَقْتَ أُذُنَه شَقًّا، وسُمّيَتْ به البِحارُ والأنهار؛ لأنَّها مَشْقوقَةٌ في الأَرض شَقًّا، والعَرَبُ تُسَمّي النَّهْرَ بَحْرًا كالفُراتِ ودِجْلَةَ[4]، والجَمعُ: بِحارٌ، وأَبْحُرٌ، وبُحورٌ.

4) ﴿ضَلَّ﴾: أصلُ (ضَلَّ) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وذَهابِه في غَيْرِ حَقِّه[5]، والضَّلالُ: الغَيْبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي: غابَ عَنهُ حِفْظُه[6]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والمَيْلُ عن الطَّريق، وأضْلَلْتُه: أضَعْتَه[7]، وضِدُّه: الاهتداءُ والاستقامةُ والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: سُلوكُ طَريقٍ غَيْرِ موصِّلَةٍ لِلْمَقْصودِ خَطَأً[8].

5) ﴿ٱلْبَرِّ﴾: البرّ خِلافُ البَحْرِ، وأَبَرَّ الرَّجُلُ: صارَ في البَرِّ، وأَبْحَرَ: صارَ في البَحْرِ[9]، والعَرَبُ تَسْتَعْمِلُ ذلكَ نَكِرَةً، يَقولونَ: خَرَجْتُ بَرًّا، وخَرَجْتُ بَحْرًا، والبَرّيَّةُ: الأَرض المنسوبةُ إلى البَرِّ، وهيَ بَرّيَّةٌ إذا كانَتْ إلى البرِّ أَقربَ مِنْها إلى الماءِ، والجمعُ: البراري، ويأْتي البَرُّ بِمعنى: الصّادِق[10]، والمُرادُ بالبرّ في الآية: اليابِسُ مِن الأَرْضِ.

6) ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾: الإعْراض: الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (ضر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(3) الخليل، العين، والأزهريُّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بحر).
(4) الجوهري، الصّحاح، وابن سِيدَه، المُحْكَم، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (بحر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلَّ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عبَّاد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلَّ).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بر).
(10) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (بر).

ويَعْرَضُ عَرْضًا[1]، وقيلَ أَصْلُها من العَرْضِ وهو خِلافُ الطّولِ[2]، والإعراض: الصَّدُّ والتَّولّي والرَّفْضُ، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عن الشَّيْءِ بالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطَّاعَةُ[3]، والمقصود بالإعراضِ في الآية: التَّرْكُ؛ أَيْ: تَرَكْتُم دُعاءَ اللّه[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ عند الشَّدائد والمِحَن لا يتضرَّع إلّا إلى الله تعالى وحدَه

يقول اللّه تعالى: وإذا أصابَتْكم الشِّدَّةُ في البَحرِ - كما لو أمسَكَتِ السَّفينةُ عن الجَري، أو اشتَدَّت عليكم الرّيحُ، وهاجَت بكم الأمواجُ واضطَرَبت، وخَشيتُم الغَرَقَ - غاب عن قُلوبِكم كلُّ مَن تَدعونَهم مِن دونِ اللّهِ، ولم تَستغيثوا إلّا باللّهِ وحدَه؛ لعِلْمِكم بأنَّه لا يُنَجّيكم أحدٌ سِواه، فلمّا نجّاكم اللّهُ من الغَرَقِ، وأوصَلَكم إلى البَرِّ؛ أعرَضْتُم عن شُكرِه وتَوحيدِه، والإخلاصِ له سُبحانَه، وكان الإنسانُ مَطبوعًا على الجُحودِ لنِعَمِ اللّهِ عليه؛ فهذه سَجيَّتُه إلّا مَن عَصَمَه اللّهُ تعالى[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في الآية:

إحسانُ الله إلى العباد بحرًا وبرًّا

صُدِّرَ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ بحرف الواو الدّالَّة على العطف، وذلك لأنّه سبحانه لمّا ذَكَر وصْفَ المشركين في اعتقادهم في آلهتهم، وأنّها تضرّ وتنفع، وأتبع ذلك بقصّة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسته إلى ذُرّيَّته وتسويله لهم؛ ذَكَر ما يدلّ من أفعاله على وحدانيته، وأنّه هو النّافع الضّارُّ المُتصرِّف في خلقه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) الأزهريُّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عرض).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/ 668، وابن القيّم، عدّة الصّابرين، ص: 192، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 96.

بما يشاء، وذكر إحسانَه إليهم بَحْرًا وبَرًّا، وأنّه تعالى مُتمكِّنٌ بقُدرتِه ممّا يريده[1].

دلالةُ تعليق الشَّرْطِ بالأداة (إذا):

لا ملجأ للعباد من الله إلّا إليه

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ تعليق الشَّرْطِ بالأداة (إذا)، وذلك لأنّ الأصل في استعمال (إذا) أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوع[2]، فالتجاؤهم إلى اللّٰه تعالى في زمن الضُّرِّ مقطوعٌ به، وكثيرًا ما يصيبهم خوف الغرق في البحر، فلا يلجَؤون إلّا إليه سبحانه.

دلالة الفعلِ الماضي في ﴿مَسَّكُمُ﴾:

خوفُ الغرق في البحر خطرٌ مُتحقِّق

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ استعمال الفعل الماضي ﴿مَسَّكُمُ﴾، وذلك لأنّه حكاية عن حالٍ ماضية، كما أنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي مُضمَّنه تحقّق الخبر، فخطر الغرق في البحر مُتحقّقٌ لكلّ مَنْ يركَبُه.

نكتة عدم التّصريح بالفاعل:

التأدّب في خطاب الله ﷻ

أُسند الفعل ﴿مَسَّكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ إلى الضُّرِّ، ولم يَقُلْ: (أَمسَّكُم) بالإسناد إلى نفسه تأديبًا لنا في مخاطبته بنسبة الخير دون الشَّرِّ إليه، مع اعتقاد أن الكلّ من تقديره سبحانه، وتنبيهًا على أنَّ الشَّرَّ ممّا ينبغي التَّبرُّؤ منه والبُعد عنه[3].

بلاغةُ الأسلوب الخبريّ في الآية:

تقرير الكفّار بالاعتراف بتوحيد الألوهيّة

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أسلوبًا خبريًّا، والنّكتة فيه أنّه خبرٌ مُستعمَل في التّقرير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 81.
(2) فاضل السّامرائيّ، معاني النحو: 4/ 69.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 482.

وإلزام الحُجَّة؛ إذْ لا أحد يُخْبِرُ عن فعله إخبارًا حقيقيًّا[1] فهو تقرير للكفّار بتوحيدهم للإله الحقّ الّذي يُنجّيهم من الغرق في البحر.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

شـيـوع لفظ (المَسّ) في الشَّرّ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ استعارة تصريحيّة تبعيّة في قوله: ﴿مَسَّكُمُ﴾، فاستعار لفظ (المسّ) للدّلالة على الإصابة بجامع الاتّصال في كلٍّ، فالمسّ حقيقته اتّصال الجسم بجسمٍ آخرَ وهو مجاز في إصابة الشّيء وحلوله، ومسّه الفقر والضَّرُّ إذا حلَّ به، وأكثر ما يُطلق في إصابة الشرّ، قال تعالى: ﴿*وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا﴾ [الزُّمر: 8] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12] ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فُصّلت: 51] ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: 73]؛ فالمعنى هنا: حلّ بكم الضرّ[2].

مَعْنى اللّام في ﴿ٱلضُّرُّ﴾ ودلالتها:

تعريف الجنس يقتضي العموم

ورَدَ لَفْظُ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ مُعَرَّفًا بأداةِ التَّعريفِ (أل) الدّالّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم؛ أيّ: جنس الضّرّ المعلوم الّذي يصيبكم في البحر، فالمشركون يلجؤون إلى الله وحده إذا أصابهم أيُّ ضرّ، وبخاصّة الغرق، وهم يوقنون أنّ آلهتهم لا تُغني عنهم شيئًا في كشف أدنى ضرّ يحلّ بهم.

نكتة التعبير بـ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ دون (الضَّرر):

خصوص الضّرر بالعاهات وعموم الضَّرّ بالابتلاءات

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ آثر النظم القرآني التّعبير بلَفْظ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ دون الضَّرر للفرق الدّلاليِّ بينهما، فالضُّرُّ عامٌّ في كلِّ بلاء يُصيب الإنسان من مرض أو فقرٍ أو نحوهما، وهو ظاهر الآيات التي ورد فيها نحو: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 17]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: 12] وغيرها، فليس الضُّرُّ مقصورًا على نوعٍ بعينه من البلاء؛ بل هو عامٌّ في كل بلاءٍ يُصيب الإنسان.

أمّا لفظ (الضَّرر) فلم يَرِد في كتاب الله سوى مرّةً واحدةً، في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النّساء: 95]، والمُراد بالضّرَر: المرض أو العاهة من عَمًى أو عرَجٍ أو نحوِهما، وقال بعض العلماء أنّ أشهر استعمالات الضَّرَر في العَمَى، ولذلك يُقال للأعمى: ضرير، ولا يُقال ذلك للأعرج والزَّمِن، كما أنّ بناء الضَّرَر على صيغة (فَعَل) مثل بناء العمى والعَرَج والحَصَر ونحوها، وهذا يدلّ على أنّ المُراد به العاهة[1]، وممّا يُؤيّد هذا التّفريق أنّ الآية نزلت في ابن أم مكتوم الضّرير، فتعيَّن أنّ المُراد بالضّرر في هذه الآية: العمى[2].

مَعنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

البحرُ مكانٌ للمخاطرِ والهلاكِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ آثر النظم الحكيم استِعمالَ حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالّ على الظَّرفيّة المكانيّة، وذلك في عبارة ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾، والنّكتة في ذلك أنَّ الإنسان مُعَرّضٌ للهلاك في البحر أكثر من أيّ مكان آخر، والإشراف على الغرق مُرْعِبٌ للنّفوس، وراكب البحر يخاف من هَيَج الماء واغْتِلامِه لعُصوف الرّيح وطُمُوِّ الأمواج[3].

مَعنى اللّام في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ ودلالتها:

النّظر إلى حقيقة الشّيء في الذّهن دون اعتبار للأفراد

جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ لفظ ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ مُعرّفًا بـ(لام الحقيقة)، وتُسمّى أيضًا بلام الجنس، ولام العهد الذّهني[4]، وهي التي تبيّن الحقيقة بقطع النّظر عن الأفراد، وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 171.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 435.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 472.
(4) القزويني، الإيضاح: 2/ 21.

تعرّف حقيقة ذهنيَّة يُراد بها فردٌ مُبهَم من أفراد الحقيقة باعتبار عهديّته في الذّهن لاشتمال الحقيقة عليه[1]، وقوله هنا: ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ لم يَقصد به بحرًا معيَّنًا بل هناك أوصاف في الذّهن لمخلوق اسمه البحر؛ فكلّ ما تحقّقت فيه تلك الأوصاف الذّهنية يدخل في عموم الخطاب بـ(ال) الذِّهنيَّة.

فائدة التّخصيص في الآية:

الإشـــراف على الـغَـرَق مرعبٌ للنّفوس

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ خصَّصَ مَسَّ الضرِّ بكونه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ والنّكتة في ذلك أنَّ الإنسان مُعرّض للهلاك في البحر أكثر من أيّ مكان آخر؛ إذ لا مَنْجى له من الغرق، فالمياه تُحيط به من كلّ جانب، والإشراف على الغرق مُرْعِبٌ للنّفوس[2]، ونظيره قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22].

دلالة شِبه الجملة الحاليَّة في الآية:

تـغـيّرُ الـدّلالـة المعنويّة بتغيُّر صاحب الحال

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ شبه الجملة ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾، ويَحتمل أن تكون في محلّ نصبٍ حالٍ من الفاعل أو من المفعول[3]، فإن كان صاحب الحال هو الفاعل وهو ﴿ٱلضُّرُّ﴾ فيكون المعنى: وإذا مسّكم الضرّ كائنًا في البحر، وأمّا إذا كان صاحب الحال هو المفعول، وهو ضمير خطاب الجمع المتّصل بالفعل ﴿مَسَّكُمُ﴾؛ فيكون المعنى: وإذا مسّكم الضُّرُّ حال كونِكم في البحر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 11/ 472.
(3) محمود الصافي، الجدول: 08/ 81.

دلالة الفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾:

تـحـقّـق عـجـز الآلـهـة الباطلة وفـقـدهـا عـند الحاجة

استُعمِلَ الفعل الماضي ﴿ضَلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ للدّلالة على تحقّق عجز آلهة المشركين الباطلة، وذلك لأنّ الإخبار عن الشّيء بصيغة الماضي مضمَّنه تحقّق الفعل، فإنّ المشركين إذا أدركهم الغرق ذهب عن أوهامهم وخواطرهم كلّ مَن يدعونه من صنمٍ أو جنٍّ أو ملكٍ أو بشرٍ، وهذا مُتحقِّق معهم في كل حالٍ يمسّهم فيها ضرُّ البحر.

بلاغة حذف مُتعلّق الفعل ﴿ضَلَّ﴾:

حـذف ما يُعلم جائز وبليغ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ الفعل ﴿ضَلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾؛ إذِ التقدير: (ذهب عن بالكم كلُّ مَنْ تدعون في مصائبكم)، والغرضُ من هذا الحذف هو الإيجاز؛ لأنّ المعنى غاب وانصرف ذكر الّذين عادتكم دعاؤهم عن ألسنتكم فلا تدعونهم، وذلك بقرينة ذِكْر الدّعاء هنا الذي متعلّقه اللّسان، فتعيّن أن ضلالهم هو ضلال ذِكْر أسمائهم، وهذا إيجاز بديع[1].

دلالةُ تعريف المُسنَدِ إليه بالموصوليَّةِ:

تشريف العاقل عـلـى غـيـره في التّغليب

عُرّف المُسنَدُ إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾، وهو اسم موصول مُشْتَرَكٌ دالٌّ في الأصل على العاقل، مع أنّ المشركين يدعون أيضًا مَن لا يعقل كالأصنام، والنّكتة في ذلك تغليب العاقل على غيره، والعدول إلى الموصوليَّة أيضًا لما تُؤْذِنُ به الصِّلَةُ من عمل اللّسان ليتأتّى الإيجاز؛ بمعنى: مَن يتكرّر دعاؤكم إيّاهم[2].

دلالة الفعل المضارع في ﴿تَدۡعُونَ﴾:

عُبِّرَ بالمضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 159.

تـكـرُّر دعـاء المـشـركـين لآلهتهم الباطلة دون جدوى

فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يُفيده المضارع من افتراض تَكَرُّرِ الحَدَثِ وتجدُّدِه واستمرارِه[1]، وفي ذلك دلالة على تكرّر دعائهم لآلهتهم الباطلة وتجدُّد ذلك منهم، والمعنى: غاب وانصرف ذِكْر الّذين عادتُكم دعاؤهم.

بلاغةُ حذفِ المفعول به للفعل ﴿تَدۡعُونَ﴾:

التّركيز على فعل الـدّعـاء دون المدعوّ

حُذِفَ العائدُ المُتَّصل المنصوب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ والتّقدير: (تدعونه)، وهو حذفٌ شائع في كلام العرب، والنُّكتة في حذفه: الإيجازُ والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشّيء دون التعرّض للمعمول[2]، بمعنى التّركيز على فعل الدّعاء دون المدعوّ، فيجعل المُتعدّي كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[3].

بلاغة الاستثناء في الآية:

تـغـيُّر المـعـنـى بـيـن الاتّـصـال والانقطاع

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ الاستثناءَ بالأداة ﴿إِلَّآ﴾، وقد اختلف العلماء في نوع الاستثناء بين الاتّصال والانقطاع، فبعضهم جعل الاستثناء من عموم الموصول ﴿مَن﴾، فاسم الله ممّا يجري على ألسنتهم في الدعاء تارةً كما تجري أسماء الأصنام، فالاستثناء على هذا التّخريج مُتَّصلٌ.

وجوَّزَ بعضُهم أن يكون الاسم الموصول في قوله: ﴿مَن تَدۡعُونَ﴾ خاصًّا بأصنامهم؛ لأنّهم يكثر دعاؤهم إيّاها دون اسم الله تعالى، كما هو مُقتضى التجدّد، فإذا اشتدّ بهم الضُّرّ دعوا الله كما قال

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، ويكون الاستثناء منقطعًا، ونصبُ المستثنى لا يختلف في الوجهيْن جريًا على الفُصحى، ولعلّ هذا الوجه أرجح لأنّه أنسب بقوله: ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾[1].

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾ ودلالتُها:

عُطِفَ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ بالفاء؛ لأنّ العطف بالفاء يستدعي مزيد الاتّصال بين المعطوف والمعطوف عليه؛ لما في معنى الفاء من التّفريع والتّسبّب[2]، فتَنجيتُهم مُسبَّبة عن تضرّعهم إلى الله تعالى وإخلاصهم الدّعاء له، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65]، ويُشعِرُ استعمالَ الفاء الدّالّة على التعقيب بسرعة إعراضهم وتركهم الدّعاء بمجرّد نجاتهم من الغرق، وفيه دليلٌ على كفرهم وسرعة نسيان نِعم الله.

سرعةُ نسيان الإنسان نِعمَ الله المنّان

دلالة الفعل الماضي ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾:

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ استعمالُ الفعل الماضي ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾، وذلك لحكاية حالٍ ماضيةٍ، تحقَّق وقوعُها بما فيها من مشقّةٍ عليكم بوصفكم بشرًا قليلي الحيلة أمام الأخطار الجسام المعترِضة في عُرْضِ البحر، والمعبَّر عنه بصيغة تضعيف فعل الإنجاء.

لطفُ اللهِ بعبادِه وتنجيتهم من الكروب

إيثارُ صيغة ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ دون (أنجاكم):

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ بصيغة ﴿نَجَّىٰكُمۡ﴾ دون (أنجاكم) للفرق في دلالة الصّيغة الصَّرفيَّة لكلّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.

منهما، فإنّ (نَجَّى) على وزن (فعّل)، وهذه الصيغة تُفيد التَّمهُّل والتَّلبُّث والبقاء مثل: (علّم) و(أعلم)، فـ (علّم) تحتاج إلى وقت، أمّا (أعلم) فهو إخبار دفعة واحدة، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [البقرة: 50]؛ لأنهم لم يمكثوا في البحر طويلًا، فقال: أنجيناكم، وكذلك في إبراهيم ﷺ قال: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: 24]، ولم يَقُلْ: (نجّاه) لأنَّه لم يلبث كثيرًا في النّار، كما أنّ صيغة (أنجى) لا تُفيد سوى مجرَّد التَّعدية، وأمّا (نجّى) فهي أكثر إفادةً لتكثير الفعل والمبالغة فيه على حدّ قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ [يوسف: 23].

تغيُّر المبنى دالّ على تغيُّر المعنى

بلاغة التَّضمين في الآية:

عُدّي الفعل (نجّى) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾، وهو خلاف الأصل؛ لأنّ الفعل (نجّى) يتعدَّى بنفسه دون حرف، فقال العلماء هنا بالتَّضمين، وهو أن تحمل كلمةٌ معنى كلمة أخرى، فتُعامل معاملة تلك الكلمة الأخرى نَحْويًّا، وفائدة التَّضمين أن يدلّ بكلمةٍ واحدةٍ على معنى كلمتيْن[1]، فلمّا عُدّي الفعل ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ في هذه الآية بـ ﴿إِلَى﴾؛ دلّ على تضمينه معنى: أبلغكم وأوصلكم، فجَمَع ببلاغة التَّضمين بين معنييْن؛ وهو إنجاؤهم وإيصالهم إلى البرِّ.

تـفـنُّنُ الـعـربيّة بالدّلالة بكلمة عـلـى مـعـنـى كلمتيْن

دلالة حذف متعلّق الفعل ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾:

حُذِفَ مُتَعلّق الفعل ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾؛ والتّقدير: (نَجّاكُم منه)، والنّكتة في حذفه: التّركيز على فعل النَّجاة لأهمّيّته، والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشيء دون التعرُّض للمعمول[2]، فيجعل المُتعدّي

النجاة أهـمّ ما يأمله الغريق

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 687.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصبًّا إلى غرضٍ من الأغراض جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَحٌ[1].

معنى ﴿إِلَى﴾ في الآية الكريمة:

دقّة البيان القرآني في اختيار حروف المعاني

تعدّى الفعل ﴿نَجَّىٰكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ الدّالّة على الانتهاء، بمعنى أنّهم بمجرّد وصولهم إلى برّ الأمان وانتهوا إليه انتهاء تمكُّنٍ واستقرار؛ عادوا إلى سابق شِرْكِهم، وأعرضوا عن التّوحيد.

معنى اللّام في ﴿ٱلْبَرِّ﴾ ودلالتُها:

النّظر إلى حقيقة الشّيء في الذّهن دون اعتبار الأفراد

جاء لفظ ﴿ٱلْبَرِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ مُعرَّفًا باللّام الّتي يُسمّيها البلاغيّون (لام الحقيقة) وهي أل الذهنية، فقوله هنا ﴿ٱلْبَرِّ﴾ لم يقصد به بَرًّا معيَّنًا؛ بل أراد عمومَ البرّ حيث مَظِنَّةُ النجاة.

بلاغة الطِّباق في الآية:

توضيح المعنى بجمعِ اللّفظ وضدّه

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ طِباق بديعٌ بين لفظي ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ و﴿ٱلْبَرِّ﴾، وهو مُحسِّنٌ معنويٌّ، فبين تقابل البحر موطن الهلاك والبرّ موطن النجاة وتخالفهما تضادٌّ يُروّع النّفس ويثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حُسْنًا وطرافةً، كما يُقوّي المعنى؛ إذ بضدّها تتمايز الأشياء.

دلالة الفعل الماضي في ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾:

إمعان المشركين في إعراضهم عن التّوحيد وجحودهم النعمة

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ آثر النظم القرآنيُّ استعمالَ الفعل الماضي ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾، والنّكتة في ذلك حكاية

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

حالٍ ماضية مُتحقِّقة، وقعت منهم إمعانًا في جحْد النعمة، وكفران المنّة بإنجائهم، وفيه تعريضٌ بسوء أدبهم مع الله تعالى.

بلاغة حذف مُتعلّق الفعل ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾:

شناعة الإعراض بعد الإنعام

حُذِفَ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ مُتعلِّقُ الفعل ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾، والتقدير: (أَعْرَضْتُم عنه)، والدليل ورود هذا المتعلِّق في عدّة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 68]، والنّكتة في حذفه: التّركيز على فعل الإعراض لشناعته، ففيه قلّة أدب مع المُنعِم ﷻ، والاقتصار على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المُجرّد في الشّيء دون التّعرُّض للمعمول[1]، فيجعل المُتعدّي كغير المُتعدّي في أنّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُتوجِّهًا إلى غرضٍ من الأغراض؛ جعل سياقه له وتوجُّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[2].

بلاغةُ الكناية والمَجاز المرسل في ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾:

إظهارُ العُرض دالٌّ على التّرك والابتعاد

الإعراض في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ كناية عن صفة ترك الإخلاص بالدّعاء بعد النجاة، ووجه الكناية أنّ حقيقة الإعراض عدم الالتفات إلى الشيء بقصد التباعد عنه، مُشتقّ من العُرض - بضمّ العين - وهو الجانب؛ فيكون أصل الهمزة في الفعل (أعرض) للدّخول في الشيء؛ أي: دخل في عُرض المكان، أو الهمزة للصيرورة؛ أي: صار ذا عُرض؛ أيْ: جانب؛ أيْ: أظهر جانبَه لغيره، ولم يُظهر له وجهه، ثم استعمل استعمالًا شائعًا في التّرك؛ لأنه يتضمّن الإعراض غالبًا، يُقال: أعرض عنه كما يُقال: صَدَّ عنه، ولذلك كَثُر هذا اللفظ في أشعار المُتيَّمين رديفًا للصدود،

(1) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

وهذا أقرب المعاني إلى المعنى الحقيقي، كما يَحْتَمِلُ أيضًا أن يكون الإعراض مَجازًا مُرسَلًا بعلاقة اللّزوم[1]، لأنّ إظهار العُرض؛ أي الجانب لازمه التّركُ والابتعادُ.

معنى الواو في ﴿وَكَانَ﴾:

إشـــراكُ جميع أفراد الإنسان في حُكم الكُفران

وُصِل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ بالجملة السابقة ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ بحرف الواو؛ لزيادة بيان كفر الإنسان للنِّعم، فبعد أن خصّ المشركين بالإعراض عن التّوحيد بمجرّد وصولهم إلى برّ الأمان ونسيانهم نعمة الله في كشف غمّهم؛ عطف عليه جنسَ الإنسان عمومًا لإشراك جميع أفراده في هذه الصّفة، إذ كلّ أحدٍ لا يكاد يُؤدّي شُكرَ نعم الله عليه[2].

بلاغة التّعبير بفعل الكونِ ماضيًا ﴿وَكَانَ﴾:

الكفران مستقرٌّ في جِبِلّة الإنسان

في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ اختار النّظمُ الحكيم استعمالَ فعل (كان) الدّالّ على الدّوام، وفي ذلك إشارة إلى أنّ الكفران مستقرٌّ في جِبِلَّة هذا الإنسان؛ لأنّ الإنسان قلّما يشعر بما وراء عالم الحسّ، فإن الحواسّ تشغله بمدركاتها عن التفكّر فيما عدا ذلك من المعاني المُستقرّة في الحافظة والمُستنبَطة بالفكر، ولما كان الشّكر على النعمة متوقِّفًا على تذكُّر النِّعمة؛ كانت شواغله عن تذكّر النِّعم الماضية مُغطّيةً عليها[3].

مَعْنى (أل) في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ودلالتُها:

عمـوم الكفران في جـنـس الإنسان

جاء لفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ مُعرَّفًا بـ(أل) الدّالّة على تعريف الجنس، وهو مفيد للاستغراق، فهذا الاستغراق يجوز أن يكون استغراقًا عُرفيًّا بحمله على غالب نوع الإنسان، وهم أهل الإشراك وهم أكثر النّاس يومئذٍ، فتكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/ 108.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 161.

صيغة المبالغة من قوله: ﴿كَفُورًا﴾ راجعةً إلى قوّة صفة الكفران أو عدم الشّكر، فإنّ أعلاه إشراك غير المُنعم مع المنعم في نعمة لا حظّ له فيها.

ويجوز أن يكون الاستغراق حقيقيًّا؛ أيّ: كان نوع الإنسان كفورًا؛ أيّ: غير خالٍ من الكفران، فتكون صيغة المبالغة راجعةً إلى كثرة أحوال الكفران مع تفاوتها، وكثرة كفران الإنسان هي تكرُّر إعراضه عن الشّكر في موضع الشّكر ضلالًا أو سهوًا أو غفلةً؛ لإسناده النّعم إلى أسبابها المقارنة دون مُنْعِمها، ولفرضه منعِمينَ وهميّينَ لا حظّ لهم في الإنعام[1].

بلاغة صيغة المبالغة في ﴿كَفُورًا﴾:

كـثرة الـكـفـران وقلّة الشّكر من الإنسان

ورد لفظ ﴿كَفُورًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ على صيغة من صيغ المبالغة لاسم الفاعل (كافر)؛ للدّلالة على تكثير صدور فعل الكفر منه؛ أيّ: كثير الكفر، والكفر ضدّ الشّكر، وقد تكرّر وصف الإنسان عمومًا بالمبالغة في الكفر في كثير من الآيات نحو قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]، وقد أظهر القرآن مبالغة الإنسان بالكفر وقلّة الشكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: 3]، فاستعمل اسم الفاعل للشّكر ﴿شَاكِرًا﴾ [الإنسان: 3]، وخصّ الكفر بالمبالغة ﴿كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: 3].

فلفظ (كافر) على وزن اسم الفاعل للدّلالة على مَن قام بفعل الكفر ولو مرّةً واحدةً، وأمّا لفظ (كَفور) فإنّ صوغها على وزن (فَعول) يفيد الدّلالة على المبالغة مع التجدّد والاستمرار، كأنّ المعنى أنّ الإنسان المبالغ في الكفر بمنزلة مادة تُستنفد في الكفر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 160.

وتفنى فيه، وذلك لأنّه جاء على وزن منقول من أسماء الأشياء التي يُفعل بها؛ كالوضوء والوقود والسَّحور والغَسول والبَخور... إلخ، ومن هنا استُعير هذا البناء للدَّلالةِ على المبالغة التي ليس بعدها مزيد[1].

بلاغة التذييل في الآية الكريمة:

إبـــراز حـكـم الكفران في صورةٍ كـلّـيّـةٍ لجنس الإنسان

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ تذييلٌ لكفر المشركين نعمةَ الله عليهم بإنجائهم من الغرق، والبلاغة في ذلك زيادة التعجيب منهم ومن أمثالهم، وفائدة التذييل غالبًا توكيد المُذَيَّلِ، وإبراز حكمه في صورة كليّة[2]، وذهب بعض المُفسِّرين إلى أنّ فائدة التذييل هنا عدم خطاب المشركين بالكفر؛ بل إسناد ذلك إلى الإنسان لطفًا بهم وإحالة على الجنس إذ كلّ أحد لا يكاد يؤدّي شكر نعم الله على وجهه[3].

توجيه المُتشابه اللفظيّ:

لجوء العبد إلى ربّـه في كشف الضّرّ

يتّضح التَّشابه بين قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النّحل: 53]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67]، في أنّ كلّا منهما حكاية لأحوال الإنسان مع ربّه إذا نزل به البلاء من شدّة التّضرّع إليه ليكشف عنه الضرّ، ثمّ سرعان ما يجحد هذا الإنسان نعمة الله عليه ويعود إلى سابق شِرْكِهِ وظُلْمِهِ، ووجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَهُما أنّ آية النَّحل أعمُّ دلالةً من آية الإسراء، فقد ذكر الضّرّ مُطلَقًا في سورة النّحل، وقيّده في الإسراء بضّرّ البحر، هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فقد ذَكَر في الإسراء لفظ الدعاء عمومًا، وخصّ موضع النَّحل برفع الصّوت فيه؛ وهو الجؤار.

تـنـوّع كـفـرِ الإنسان لنِعَمِ ربّه المنّان

بين قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: 67] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: 65] وقوله

(1) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 230.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 82.

تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: 32] وجوهُ تشابه ومغايرة، ويتّضح التّشابه بين هذه الآيات في أنّ كلّا منها حكاية حال الإنسان في تضرّعه إلى ربّه إذا حاق به خوف الغرق في البحر، كما تشترك جميعًا في بيان جحود هذا الإنسان بعد وصوله إلى برّ الأمان.

ووجْهُ المغايَرَةِ بَيْنَها: أنّ آية العنكبوت بُدئت بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [العنكبوت: 65]، فلمّا كان هؤلاء لا عقلَ لهم يمنعهم من العودة إلى الشّرك؛ ناسبه قولُه: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: 65]، أمّا آية لقمان فقد بُدِئتْ بقوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ [لقمان: 32]، فلمّا كان يسبق ذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: 31]، وكان ذلك ممّا يجعل هؤلاء مُلتزمين بما عاهدوا الله في البحر؛ ناسبه قوله: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ﴾ [لقمان: 32]، وأمّا آية الإسراء فقد بُدئت بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ﴾؛ فلمّا كان السّياق في الدُّعاء، ناسبه قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ﴾؛ أيْ: تركتم الدُّعاء بمجرد شعوركم بالأمان.

رسـوخ الطّباع الـذمـيـمـة في جبلّة الإنسان

تتشابه الآيات الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: 11]، و﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، و﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: 100]، و﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: 54] في ذكر بعض الأوصاف الذّميمة للإنسان، فذكر في الموضع الأول العجلة، وفي الثّاني الكفر، وفي الثالث التّقتير، وفي الرّابع كثرة الجدل، كما تتشابه في دلالتها على رسوخ هذه الصفات في الجبلّة الإنسانية ولذلك عبّر عنها بـ(كان) المفيدة للدّوام والاستمرار وثبات الصفة،

وبصيغة المبالغة (فعول)، ولفظ (أكثر) للدّلالة على كثرتها في طبعه، ويظهر وجه المغايرة بينها من جهة السّياق:

فقد بُدئت الآية الأولى بقوله: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ﴾ [الإسراء: 11]، فلمّا كان الإنسان يستعجل الإجابة؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ١١﴾ [الإسراء: 11].

أمّا الآية الثانية؛ فقد ورد فيها قوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾، فلمّا كان الإعراض عن الشّكر كفرًا، ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورٗا﴾.

وأمّا الآية الثّالثة؛ فقد بُدئت بقوله: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ﴾ [الإسراء: 100]، فلمّا كان ذلك بُخلًا وتضييقًا؛ ناسبه قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100].

وأمّا آية الكهف فقد بُدئت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ﴾ [الكهف: 54]، فلمّا كان السّياق في ذِكر الأمثال للنّاس؛ ناسبه ذِكْرُ جدال الإنسان بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا ٥٤﴾ [الكهف: 54].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المسُّ والإصابَةُ:

إطلاق المسّ على الشرّ، وعموم الإصابة في الخير والشرّ

بين لفظ ﴿مَسَّكُمُ﴾ و﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾ [النّساء: 73] عمومٌ وخصوصٌ، فالإصابة عامّة لكلّ ما ينال الإنسانَ من خير أو شرّ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النّساء: 73]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشّورى: 30].

وأمّا المسّ فأكثرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿*وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزُّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فُصّلت: 51]، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ [الأعراف: 73][1].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 316.

كما أنّ الإصابة تُطلق على الحقيقة، وأمّا المسّ فإنّه مَجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِهِ، لأنّ أصله اللّغوي يُطلق على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[1]؛ فعبّر بالمسّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، وذلك مناسبة لسياق الآية من إصابة ضرّ البحر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»